الأسلوب الحجاجي السائغ في الخطاب الميثمي الجامع

د. إدريس هاني

الكلمات المفتاحية: إدريس هاني، الأسلوب الحجاجي السائغ في الخطاب الميثمي الجامع، كمال الدين مثم بن علي البحراني، المنهج الحجاجي، المنهج البرهاني.

ينتمي النص الميثمي[1] إلى جنس الكتابة الكلامية والفلسفية والعرفانية في أرقى آمادها التنظيرية وأرفع مستوياتها التطبيقية... فهو نص شمولي مكثف زاخر بالصيغ البيانية حد البديع وطافح بالدلالات البرهانية الموحية بمرونة التمنطق المكين.. حافل بالنكات العلمية تمتد سمحة في كل الآماد فتعانق بكياسة ندية كل فضاءات الأنس المعرفي، بدربة قل لها نظير ولياقة نادرة الوقوع في عرصات عامة العلماء، كدأب الشاذ من الرواد القدامى في بلائهم وفريهم وأزيد. كما يعكس عبقرية شيخنا المحقق الذي امتدت براعته كي تعانق أطيافًا من التخصصات وتعاقر ضروبًا من الفنون والصنعات الشرعية والعقلية والذوقية، التي صار بها رائدًا رئيسًا في كل فن، لا هاويًا يقصر به كمشه عن بلوغ سدرة الرئاسة وسدة النبوغ العلميين. فيحار المرء لا بل يعجز عن حد مظاهر عبقريته أو حصرها في طبقة دون الطبقات المعرفية التي امتد إليها يراعه ذائقًا متفننا.. فائضًا سيالًا منسدرًا.. فهو سيد البلغاء واللغويين.. وسيد العرفاء والمتخلقين.. وسيد الحكماء والمتكلمين.. وزبدة الفقهاء والمستنبطين... وفوق هذا وذاك هو الحجاجي إن برح قمقم الانشغال بالنظر والتزهد في مخالطة أغمار الخلق، عجر أخا المناظرة وبجره. فلم تقم له قائمة كما رأينا من حكاية **أصالة المال**[2] **والكم الآكل**[3].. إنه رجل البلاغة الذي ألف فيها كتاب

---

[1]- ولد الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم بن المعلى البحراني بالدونج قرية من بلاد البحرين التي كانت تاريخيا تشمل الأحساء والقطيف، وقد اختلف المترجمون في تحديد سنة ولادته ووفاته... فمنهم من قال أنه ولد سنة 636 هـ وتوفي سنة 699 هـ ودفن حسب المحقق البحراني في لؤلؤة البحرين في قرية هلتا من بلاد البحرين أيضا... هذا حسب الراجح عند بعض المحققين لتضارب تحديد زمن وفاته، حيث ذكر أول مترجم له الشيخ سليمان بن عبد الله الماجوزري بأن وفاته تمت سنة 769. وتبعه في ذلك كثيرون، ولسنا هنا في مقام التحقيق في تاريخ مولده ووفاته، فذلك مرده إلى محل آخر، والعهدة في ذلك على المحققين والمؤرخين وأصحاب التراجم.

[2]. احتجاجات الشيخ البحراني لم تكن حية بالمعنى الذي يفيده فعل التواصل الاجتماعي كما كان ديدان أهل المناظرة ولهم نظائر في المتقدمين والمتأخرين، بل اقتصر على جنس الاحتجاجات الافتراضية لو صح هذا التعبير، بمعنى استيعابه لكل اعتراضات الخصم ثم الرد عليها بإتقان. . غير أن الشيخ البحراني وكونه من أهل الذوق والتصوف وأهل العلم والغوص لم يكن اجتماعيا بقدر ما كان منزويا حتى عاتبه البعض على ذلك، فكانت أجوبته دالة على أنه لم يكن من أهل المناظرة المباشرة ولكنه من أهل المناظرة غير المباشرة. . لكنها مناظرة حية من حيث استشكالاتها حتى أنها تظهر حيوية الاحتجاج الرفيع عند شيخنا ميثم البحراني. . ويروى أن بعضهم كتب إليه كتابا يعاتبه فيه على انزوائيته وبعده عن الناس قائلين له : "و العجب منك مع شدة

مهارتك في جميع العلوم و المعارف و حذاقتك في تحقيق الحقائق و إبداع اللطائف قاطن في ظلول الاعتزال و مخيم في زاوية الخمول الموجب لخمود نار الكمال. . . "، فأجابهم في أبيات شعرية :

طالبت فنون العلم أبغي بها العلا * * * فقصر بي عما سموت به القل

تبين لي أن المحاسن كلها * * * فروع و أن المال فيها هو الأصل

فلما وصل إليهم الكتاب، كتبوا إليه : " إنك أخطأت في ذلك خطأ ظاهرا و حكمك بأصالة المال عجب "، فأجابهم متمثلا شعرا :

قد قال قوم بغير علم* * * ما المرء إلا بأصغريه

فقلت قول امرئ حكيم* * * ما المرء إلا بدرهميه

من لم يكن له درهم لديه * * * لم تلتفت عرسه إليه

[3]. لقد استوقفتني قصة ما أسميناه بالكم الآكل، المروية عن شيخنا ميثم البحراني. . يحكى أنه دخل مرة إلى بعض مدارس العراق وفيها جمع كبير من العلماء. . فسلم عليهم ولم يرد عليه السلام إلا بعضهم استخفافا بحاله، فجلس حيث موضع صف النعال، ولم يمنح اهتماما من الحاضرين، وحين استوقفتهم مسألة عويصة لم يتمكنوا من حلها، تدخل قدس سره الشريف، وأجاب بتسعة أجوبة أذهلت الحاضرين، فقام إليه أحدهم وقال استخفافا به :" أخالك طالب علم". . وبعد أن وضع الطعام، أهملوه ولم يضيفوه على مأدبتهم وأعطوه قليلا من الطعام منفردا. . وفي اليوم الثاني عاد إليهم متوشحا أفضل اللباس وبدا على هيئة سيد من سادة القوم، فما كان من الحاضرين وهو أنفسهم من استخف بها أمس، إلا أن بادروا بالتعظيم وإبداء الاحترام فأجلسوه صدر المجلس. . وحين الحديث لم يتدخل إلا بكلام ساذج لا يرقى إلى ما صدر منه أمس. . ولما وضع الطعام ألقى الشيخ كمه في الطعام وقال" كل يا كمي"، ولما ساد التعجب من صنيعه قال للقوم:" إنكم إنما أتيتم بهذه الأطعمة النفيسة لأجل أكمامي الواسعة لا للنفس القدسية اللامعة، وإلا فأنا صاحبكم بالأمس وما رأيت تكريما ولا تعظيما مع أني جئتكم بالأمس بهيئة الفقراء وسجية العلماء واليوم جئتكم بلباس الجبارين وتكلمت بكلام الجاهلين فقد رجحتم الجهالة على العلم والغنى على الفقر، وأنا صاحب الأبيات التي هي في أصالة المال وفرعية صفة الكمال التي أرسلتها إليكم وعرضتها عليكم، وقابلتموها بالتخطئة وزعمتم انعكاس القضية" فاعترف الحضور بخطئهم واعتذروا على ما صدر منهم. .

والحق أن مثل هذه الحكاية وردت فيما ورد عن أحد العارفين المغاربة هو سيدي عبد الرحمان المجذوب، الذي عاصر الدولة السعدية بالمغرب، وهي من الأقاصيص التي تحكى عنه شفهيا وعرف بها. . ولم نكن نعرف لها مصدرا آخر حتى وصلنا ما وصلنا عن خبر "كل يا كمي" عن الشيخ ميثم البحراني. . فإذا ثبت أن عصر المجذوب هو القرن العاشر بينما عصر ميثم هو السابع، أمكننا القول أن الحكاية كان لها أصل آخر غير ما ورد شفاهيا عن سيدي عبد الرحمان المجذوب، وليس غريبا أنها حكاية عرفت في العراق وانتقلت إلى المغرب فسارت بها الركبان. .

تجريد البلاغة، حتى أنه أغرى لشأنيته النافذة في الفن، أعلامًا وضعوا على إثره شروحًا نظير ما جادت به قريحة أبو عبد الله المقداد بن عبد الله السيوري الحلي (توفي 826هـ) في شرحه الذي سماه: **تجريد البراعة**، وقد كان من تلامذته كما كان أعلام آخرون من تلامذته لا يقل لهم شأن أمثال الشريف الجرجاني[4].

وكان شيخنا ميثم رجل الفقه المحقق حتى وصف عند القوم بزبدة الفقهاء والمحدثين.. إذ يكفيه فخرًا أن كان من تلامذته النجباء في الفقه، الخواجة نصير الدين الطوسي[5]، و كذا ما شاع من خبر المباحثات الفقهية التي جمعته مع رئيس من رؤساء هذا الفن في عصره، ألا وهو المحقق الحلي. وكان قد أجاز في الحديث علمًا فقهيًا بارزًا أيضا، هو العلامة الحلي.. كما رجع إليه بعض الفقهاء من المتأخرين في مسائل فقهية كصاحب الروضة البهية الشهيد الثاني في شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، على الرغم من أنه لم يخلّف وراءه مصنفًا فقهيًا يذكر؛ وحيث باعه الطويل في الصناعة الفقهية لا يحتاج إلى شواهد من أثر التصنيف والتأليف، وإن كانت تلك معرة زبدة الفقهاء، أن لا يكون له في المقام أثر ينتفع به الخلف كما أمكن الانتفاع بآثاره الأخرى[6]... وهو أيضًا رجل الكلام والفلسفة برع فيهما أيما براعة كادت أن تحجب روائعه الأخرى. بل لعل كل روائعه مهما تنوعت مواردها وتخالفت شؤونها وتشذرت موضوعاتها، فهي بؤرة جامعة لمعاني الحكمة والكلام، بما في ذلك رائعة الروائع: شرحه **نهج البلاغة**، وكذا **منهاج العارفين** وهو شرح المائة كلمة للإمام علي عليه السلام، وفي هذا الاختصاص صنف أيضًا كتاب **استقصاء النظر في إمامة الأئمة الاثني عشر** وكتاب **قواعد المرام في علم الكلام** وكتاب **النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة**، الذي هو محور ورقتنا وشاهدنا على نجاعة أسلوبه الحجاجي السائغ كشذرة من شذرات خطابه الجامع وقطر من ندى تراثه النافع.. كما أن له رسالة في الوحي والإلهام... وفي الحكمة والفلسفة صنف كتبًا كثيرةً نظير **شرح كتاب الإشارات** للشيخ علي بن سليمان البحراني ورسائل أخرى. وقد أشاد برأيه الفلسفي كبار الحكماء والمتألهين، كالشيخ الطوسي وكذا ملا صدرا بعد

---

[4]يشير الشيخ سليمان البحراني: "الشريف الجرجاني على جلالة قدره في أوائل فن علم البيان من شرح التفتازاني قد نقل عن بعض تحقيقاته الأنيقة وتدقيقاته الرشيقة، أنه عبّر عنه (الشيخ ميثم) ببعض مشائخنا ناظمًا لنفسه في سلك تلامذته، ومفتخرًا بالانخراط في سلك المستفيدين من حضرته المقتبسين من مشكاة فطرته".

[5]. يذكر أن الشيخ ميثم البحراني تلقى درس الفلسفة عن الطوسي كما تلقى منه هذا الأخير درس الفقه. .

[6]ـ انظر الشيخ ميثم البحراني ((1299 - 1238) الفقيه والفيلسوف والمؤلف للعلامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم في الذكرى السبعمائة لوفاة الفيلسوف الكبير الشيخ ميثم البحراني، اكتوبر1999 :" ونقل عنه بعض العلماء آرائه في بعض المسائل الفقهية كالشهيد الثاني في شرح اللمعة الدمشقية في مسألة الحج ماشيًا أو راكبًا أيهما أفضل". .

ذلك، حتى قيل أنه أكثر عليه النقل في حاشية شرح التجريد، في مبحث الجواهر والأعراض. ولك أن تدرك أي شأن فلسفي يجعل صدر المتألهين يحيل عليه في موضعه وقد علمت أن مبحث الجواهر والأعراض شطر من صديع الحكمة المتعالية، حيث أثبت حكيم أصفهان الحراك الراجح الأصح في الجوهر كما في سائر الأعراض.

إن شيخنا نموذج ناذر للشخصية العالمة التي تعددت أبعادها واستطاعت أن تتجاوز بتكوينها المركب ما مكنها من ركوب صهوة الـ"عبر . مناهجية"[7]. interdisciplinary . حيث جعلت البعض يرى فيه واحدًا من الأعلام الذين أسسوا لنمط من الممارسة الفكرية الجامعة بين التشيع والتصوف[8]. وقدر هذا النموذج من العلماء الذين اجتمعت لديهم هذه الصنعات وامتد نبوغهم إلى أقصى الأبعاد بقيد التفنن والبراعة فيها . حيث ما من علم إلا وقدم فيه شيخنا ما يرقى إلى مقام الرائعة[9] . أن يأتوا بما هو مميز وما هو إبداع جلي ذائع في الأنام، ظاهر شاخص في الوجود. ولهذا السبب تحديدًا كان لا بد من وصف أسلوبه بالحجاجي، نظرًا لانتمائه بحسب النموذج المعرفي إلى هذه الـ"عبر . مناهجية"، التي قلما تأطر أهلها بالأسلوب البرهاني الحصري بمعناه الأرسطي التقليدي، أو اكتفوا باليسير من الموروث والوحيد من الرأي. بل هو أسلوب يستمد قوته من الحجاج في مرونته واستيعابيته الموسعة والشامل لكل مسالك الدليل وليس مجرد الاكتفاء بالبرهان الصوري فحسب. وهذا ما مكن

---

[7]. وهناك من ترجمها بالبيتخصصية، حال من جمع فنونا وتخصصات مختلفة في تكوينه النظري وبنى ممارسته الإبداعية على أساس الإفادة من مجموع هذه العلوم والتخصصات لصالح نتائج أكثر تركيبا وتكاملا؛ وميزة الـ"عبر . مناهجية " أن تمكن صاحبها من الوقوف على مجمل الآراء دون أن يقع في حبائل رأي واحد، بل يجاوزه إلى رأي مركب كما هو الحال مع صدر المتألهين الشيرازي مثلا في فلسفته التوفيقية ونظرائه، وأحسب أن شيخنا ممن سلك هذا الدرب بل من المؤسسين له. .

[8]. انظر مثلا الدكتور كامل مصطفى الشيبي، في كتابه: الصلة بين التصوف والتشيع. .

[9]- لا نريد الإطناب في سيرته ومؤلفاته حيث ليس ذلك هدفا ركيزا لهذه الورقة، فنقتصر على ما ذكره مترجموه. . ففي بيان شمولية براعته وتفننه في علوم مختلفة، قول الشيخ سليمان الماحوزي: «هو الفيلسوف المحقق، الحكيم المدقق، قدوة المتكلمين، و زبدة الفقهاء والمحدثين، العالم الرباني، كمال الدين ميثم البحراني، غواص بحر المعارف، ومقتنص شوارد الحقائق واللطائف، ضم إلى إحاطته بالعلوم الشرعية، وإحراز قصبات السبق في العلوم الحكيمة والفنون العقلية ذوقا جيدا في العلوم الحقيقية والأسرار العرفانية، كان ذا كرامات باهرة ومآثر ظاهرة، ويكفيك دليلا على جلالة شأنه، وسطوع برهانه اتفاق كلمة أئمة الأمصار، أساطين الفضلاء في جميع الأعصار على تسميته بالعالم الرباني. وشهادتهم له بأنه لم يوجد مثله في تحقيق الحقائق، وتنقيح المباني. . "

ويؤكد السيد حسن الصدر ذلك بقوله:"الشيخ ميثم بن علي البحراني المعاصر للسكاكي صاحب " المفتاح ". كان علامة في العلوم العقلية والنقلية".

الشيخ وأضرابه أن ينزلوا في كل مورد بلبوس يناسبه من طرائق الاستدلال على خلاف ما جرت عليه العادة عند من اكتفى بالطرائق المحصورة، فما كان من ذلك الصنف إلا أن يهجو صنائع بأكملها متى تعالت على نسقه المنطقي المحصور[10]. فرأينا من هجا العرفان ما دامت حقائقه تتعالى على المنطق الصوري، فاعتبره واقعًا في منزلة أدنى من أحكام العقل[11]. وآخرون باسم هذا المنطق رفضوا تعاليم الشرع وآخرون هاموا شذر مذر فلا استقامت لهم طريق ولا صحت لهم وجهة. وهكذا دواليك مما لا يخفى على ناظر مطلع.

أجل، لقد وصفنا الطريقة الميثمية على الأقل فيما يعنينا من بحث أمر الغيبة من كتابه النجاة، بالطريقة الحجاجية على خلفية نكتة في المقام، ترى أن الحجاج هو الأسلوب الأصيل في فن المناظرة، وهو أوسع مما تفي به مسالك البرهان الحصرية، حيث ليس المعول عليه في الحجاج سوى المضي مع الخصم إلى نهاية الحجاج قصد إفحامه، والاستناد في ذلك على ما يسند حجة المتكلم. وبهذا فإن سيرورة الحجاج مفتوحة ولا نهائية، حيث يتوقف أمرها على خبرة المتحاورين ودربتهما. وتكمن قيمة الحجاج في أنها تترك المجال مفتوحًا لمعاودة الكرة ومواصلة النقاش متى عرض تطور جديد في مدارك أحد المتناظرين. فلو أنه أفحم اليوم في مجلس من مجالس المناظرة فليس معنى ذلك أنه لن تقوم له قائمة إذا ما تأمل مسائله وتكون لديه ما هو حقيق بفتح جولة جديدة من جولات المناظرة بناء على ما سبق. فالعلم بالمناظرة وأسلوب الحجاج لا ينتهي، حيث الصواب يتشكل في قلب المحاورة وتلاقح العقول في المناظرة، أو كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: "اضرب بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب... وامخض الرأي مخض السقاء"، وهذا يعني أن العلم ينمو بنحو جدلي وعبر آلية الحجاج المباشر أو الافتراضي الذي يمنح العالم قدرة فائقة على الاستشكال كما لو كان يتمثل خصمه ويفترض اعتراضاته. فالممارسة العلمية الناجعة هي تلك التي يتمثل فيها العالم نفسه وخصمه في آن، حتى لو كانت ممارسته الفكرية خارج دائرة المناظرة المباشرة، وهو ما سوف نجده ماثلًا عند شيخنا ميثم في مباحث النجاة، إذ يستحضر بحصر يكاد يكون عقليًا كل الآراء الاستشكالات المفترضة من خصم مفترض. إن أسلوب البرهان الصوري المحصور، أسلوب عقيم حينما يستبعد كل أشكال مسالك الحجاج الأخرى بما في ذلك الشعرية، ولا يخفى أن طريقة القرآن وأقوال الرسول صلى الهل عليه وآله، والأئمة عليهم السلام وسائر أهل المناظرة هي من ذاك القبيل. فليس غريبًا أن يكون الأعلام من أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام. قد اهتموا بهذا النمط من المناظرة، فدونوا

---

[10]. وذلك ديدن من رام هجاء الصنعات العقلية من خصوم المنطق والفلسفة كابن الصلاح ونظرائه، أو أقل استيعاب لمقاصدها كابن تيمية الحراني، أنظر: ادريس هاني، المنطق في الثقافة العربية والاسلامية؛ جدل التطور والإعاقة: نقد المنطق لابن تيمية مثالا، ورقة مقدمة للمؤتمر التخصصي حول المنطق الأرسطي. . نظمه معهد المعارف الحكمية ببيروت سنة 2005م. .

[11]- في التراتبية التي وضعها د. محمد عابد الجابري لحصر محددات العقل العربي في سلسلة نقد العقل العربي، يضع العرفان في أسفل مستويات العقول: العقل البرهاني والبياني وأخيرا العرفاني، بل تراءى له أن حقائق العرفاني التي تراءت للعارف بأنها فوق العقل إنما هي في الحقيقة تحت العقل. . انظر بخصوص نقد هذه التراتبية: ادريس هاني ؛ محنة التراث الآخر؛ النزعات العقلانية في الموروث الإمامي، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، ط1، 1998م بيروت

وأرخوا لروائعها التي دار جلها حول موضوعات ذات الصلة بقضايا الاعتقاد التي كانت مدار علم الكلام حينئذ. فكان أن ألف الشيخ الطبرسي كتابه الشهير **الاحتجاج**، الذي ضمنه كافة أشكال المناظرة التي جمعت الرسول أو بعض الصحابة والتابعين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، وأئمة أهل البيت عليهم السلام، مع خصومهم. حتى أمكن اعتباره كتابًا عمدةً في المقام بل هو موسوعة وملحمة في الحجاج على النمط الذي وصفناه آنفًا.

ليس أسلوب المناظرة نقيضًا لأسلوب البرهان، بل هو أوسع مدى حيث يشمل البرهان وغير البرهان، لأن المعول عليه في الحجاج هو حمل المتلقي بطريق القهر النظري على تقبل الرأي المخالف بعد إبطال حججه وثني المتلقي عن رأيه بالحجة التي تعني عند أهل الحجاج كل ما من شأنه أن يدعم رأي المتكلم بالمعنى اللغوي العام وليس الوسط الذي تثبت به الكبرى للصغرى في القضية الحملية كما هو المصطلح عند المناطقة. فالبرهان عند الحجاجي ليس غاية بل وظيفة. والتمسك بطرائق غير برهانية في الاستدلال لا يخرج القضية من حاق المعقول، بل قد يكون ذلك قصورًا من المخاطب – بكسر الطاء – أو مراعاة لمكنة المتلقي. وقد يتحقق القطع من دون برهان، ويكون العمدة في ذلك التسليم جدل باطن اندكت معه وسائط البرهان حتى غابت عن صاحبها، لكنها تنكشف تباعًا إلى أن يقتدر الإنسان على تظهيرها للمتلقي بعد أن تكون قد ظهرت له في حاق وعيه. فيتأكد حينئذ بأن ليس كل ما دان به البشر جاء عن طريق البرهان كما لا يخفى، وليس كل ما يدين به البشر يستطيع أن يتقاسمه مع الآخر بطريق برهاني. لذا كان لا بد من سيادة الحجاج كطريق أنجع لنضوج الفكر وتطور المعارف واستذكار منسي الوسائط في روع الواصلين إلى المعارف حدسًا وحضوريًا. فالبرهان بمعناه الأرسطي مطلوب وليس لازمًا في المناظرة، وممكن وليس وحيدًا في الحجاج. وإن عدم حضوره في المناظرة عند الاقتضاء لا يخرج المناظرة من دائرة البرهان بمداه الأوسع، المشار إليه في الذكر الحكيم: "قل هاتوا برهانكم إن كنت صادقين"، فلو كان البرهان بمعناه الأرسطي وحده العمدة فيما دان أو يدين به البشر، إذن لساخت ممالك الإيمان، ولما أمكن استمرار النوع. حيث في يدي الناس ما هو أوسع مما يثبته البرهان الأرسطي فتأمل... وإذا كان شيخنا ميثم البحراني هو ممن استوفوا هذه الصناعات وأدركوا حدود المنطق والفلسفة، فإن تمسكه بطريقتهما كما بدا في كتاب النجاة لا يعني وفاءه بهما حتى لو صار المورد محلًا للاعتبارات، وهو ما يدركه كفقيه وعارف أيضًا؛ حيث مجال الشريعة كمجال العرفان هما موردان لتكاثر الوجوه والحيثيات والاعتبارات أكثر من مجال الفلسفة التكويني والمنطق الصوري... وحيث يكفي أن يكون الشيخ ميثم متكلمًا، كي يتعدى في حجاجه حدود المنطق الصوري متى أمكن ذلك، فالمتكلم هو متجاوز للثالث المرفوع في أكثر من مورد، مع الفارق بين طريق المتكلم الإمامي وغيره، فالتجاوز هنا بلحاظ الاعتبارات، فهو هنا يلتقي مع الفيلسوف، وكما في الاقتصار في التعريف على ما يتحقق به التمييز وإن ظل في الاحتمال ما يوقع في الاشتراك.

إننا سمينا أسلوبه بالحجاجي لهذا السبب تحديدًا، كما سميناه كذلك لأن موضوع الإمامة والغيبة هما من الموضوعات التي لا يعول فيها على البرهان إلا بمقدار ما هو ملزم في ضوء مقدمات ضرورية يحتم التسليم بها

التسليم بآثارها الملزمة... ومقتضى كون الخطاب موجه لكل أصناف البشر وطبقاتهم بغض النظر عن التفاوت في مداركهم وأحوالهم، دليل على أن المقصود من البرهان في الخطاب القرآني هو كل أشكال الحجة مطلقًا، فلو اقتصر على مجرد البرهان بمعناه الأرسطي لانحصر الخطاب وضاق المقصد، حيث أغلب بني آدم لم يحرزوا مقدمات البرهان والأقيسة المنطقية. وحيث وقفنا في الكتاب الأخير على بعض النكات لا تصلح أن تكون برهانية إلا بما هي محفوفة بالحجج الشرعية . ومع أننا نعتبر الحجة الشرعية هي في مجالها عين البرهان، إلا أننا نميز البرهان الشرعي المطلوب في قوله تعالى: "قل هاتوا برهانكم" عن البرهان بالمعنى الاصطلاحي المنطقي المحصور في القياس الحملي المخصوص، ولعل هذا ما يميز متفلسفة الإمامية عن غيرهم، حيث للنقل مدخلية أساسية في تأطير القول الفلسفي، وهو التقليد الذي برع فيه جيل الشيخ ميثم البحراني الذي زاوج بين ضرورات المنقول وضرورات المعقول في بناء فلسفي متين أعلن مصالحة ذكية بين الكلام والفلسفة، فكم من نكتة كف أن يتبع فيها فلاسفة الإمامية نظراءهم حتى من كان منهم قد تنزل منزلة المرجع المعتبر كالشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، حيث نقض عليه أحد معاصري الشيخ ميثم، أعني الحكيم حيدر آملي كما ظهر ذلك في ردوده على مغالطة ختم الأولياء عند الشيخ الأكبر انطلاقًا من المنقول ابتداءً وتثنية بالمعقول وتثليثًا بالكشف[12]. فالمنقول حاضر في منتهى القول الفلسفي الإمامي حتى لو تعلق الأمر بإثبات اتحاد العالم والمعلوم، ووحدة الوجود والمعرفة أو إثبات الحركة في الجوهر[13]. حضورًا فوق أن يكون محض تعمل، بل نوع من التأطير النقلي الذي أمكنه إحداث تحول كبير في القول الفلسفي كان وراء ميلاد الفلسفة المتعالية، التي هي مدينة بشكل ما إلى هذا الإرث العظيم الذي بذر بذرته الأولى الشيخ ميثم البحراني وجيله من أمثال الخواجة نصير الدين الطوسي وحيدر آملي.

[12]. يقول الحكيم العارف حيدر آملي في نص النصوص:" وهذا لا يتيسر إلا بعد نقل كلام الشيخ في هذا الموضع ودعواه فيه . يقصد الشيخ محيي الدين بن عربي . ثم إلزامه وإسكاته به، ليكون حاله في ذلك كحال من قال: يداك أوكتا وفوك نفخ(. . .) والصحيح لا تعرف صحته إلا بقوة النقل والعقل والكشف، خصوصا إذا كان مع صاحب الكشف هذا الانبياء والاولياء والمشايخ العلماء. . . ". انظر بهذا الصدد الكتاب القيم للدكتور خنجر علي حمية حول الحياة الروحية والفكرية لحيدر آملي الموسوم بـ : العرفان الشيعي، من منشورات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، ط، دار الهادي 2004م. .

[13]. استدل ملا صدرا على وجودية العلم من القرآن، بقوله تعالى:" قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"، وبه دفع شبهة ابن سينا في اعتبار العلم خاصة الحصولي منه ضربا من الإضافة، بينما رأى إليه ملا صدرا ضربا من الوجود وبأن العلم ليس حصرا كيفا، بل هو متعدد بحسب معلومه فهو من مقولة معلومه. . فمع كل علم هناك تكامل في الوجود، وهو مفاد الآية الكريمة. . كما استدل في معرض ما استدل به على الحركة الجوهرية قوله تعالى:" وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب". . انظر بهذا الصدد : ادريس هاني، "ما بعد الرشدية ؛ ملا صدرا رائد الحكمة المتعالية" ط1، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، بيروت 200م. .